أبرياء في المعتقل: فصول من كوميديا الألم

(الاعتقال إنقاذ)... بهذه العبارة الموجزة والصادمة بدأ المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه مقدمة كتابه الشهير (مذكرات بورجوازي صغير)، ولا شك أن دوبريه في عبارته هذه إنما ينطلق من تجربته في الاعتقال بعدما شارك في ثورات أميركا اللاتينية إبان الستينيات من القرن الماضي، وجرى اعتقاله في بوليفيا وحكم عليه مدة عشرين سنة قبل أن يطلق سراحه في العام ١٩٧٠ بضغط من الرأي العام العالمي وتدخل الحكومة الفرنسية لدى السلطات البوليفية.. ولكن كيف يكون الاعتقال إنقاذاً؟! ذلك ما يسهب به دوبريه في كتابه الآنف الذكر بلغة يغلب عليها الطابع الفلسفي.

يلصق دوبريه بعبارته السابقة عبارة أخرى لباسكال تقول؛ (إن جميع مصائب البشر تأتي من كونهم لا يستطيعون أن يظلوا مرتاحين في غرفهم). وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد. غير أن هناك استثناءات كثيرة لا ريب ولا سيما في شرقنا العجيب، فمن الممكن جداً أن تجد نفسك في ظل حكم دكتاتوري شمولي ضحية خطأ ما، أو وشاية كاذبة في زنزانة مظلمة، وعلى طاولة تعذيب، وربما في غرفة الإعدام.. نقول؛ في ظل حكم دكتاتوري شمولي يقوده حزب واحد يمتثل لمزاج وأهواء وأفكار وأوامر (قائد) أوحد.. والحكايات هاهنا لا تعد ولا تحصى.

ولكن ماذا نقول حين يحدث ذلك بوساطة أجهزة تابعة لدولة كبرى تفخر أنها راعية الديمقراطية في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) وفي دولة محتلة هي العراق، قالت أمريكا أنها ستجعل منها فردوس الديمقراطية في العالم الثالث؟!

في هذا المقام ارتأيت سرد مجموعة من حكايات ابرياء اعتقلتهم القوات الأمريكية عن طريق الخطأ، أو لأسباب وحسابات نجهلها.

سعد محمد رحيم

لم يأتوا من أجلي!

تذكر حكايات الاعتقال غير المنطقية بأجواء روايات كافكا.

(لم يأتوا من أجلي، بل كان هدفهم جاراً لي..)

هكذا بدأ (ص. ر. ع) - صاحب محل أثاث - سرده لقصة اعتقاله.

(كانت الساعة السادسة فجراً من يوم ٣١ / ١٢ / ٢٠٠٣.. ابني الصغير - ٥ سنوات - فتح الستارة في الطابق الثاني ونظر إليهم.. بقوا في بيت جاري حتى الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً، وخلال ذلك استعددت مع عائلتي لمجيئهم، إذ كانت المنطقة كلها مطوقة بمدرعاتهم.. حين دخلوا صرخ بي المترجم، وكان يحمل مسدساً، انبطح على الأرض.. انبطحت، وراحوا يفتشون البيت.. أجلسني أحد الأمريكان، مع أولادي على أريكة في صالة البيت.. أخرج واحداً من الصغار ليستجوبه على انفراد، ثم الآخر الأكبر.. بعد ذلك قادني إلى خارج البيت، وفي هذه الأثناء كنت قد أعطيتهم مسدسي - نوع توكاريف - مرخص من قبل سلطة التحالف في المحافظة.

على الرصيف أعاد النظر في القائمة التي يحملها، ولم يكن فيها اسمي، وسألني عن عملي، ثم باغتني بسؤال عن مدى معرفتي بتنظيم القاعدة، وإن كانت لدي معلومات عن (فدائيي صدام).

في البدء قالوا أنهم سيأخذون المسدس والإجازة ليتأكدوا، وبقينا نتحدث على الرصيف، حتى أقبل شاب يرتدي دشداشة مع أخته، وكان يبغي إيصالها إلى الكراج فهي طالبة جامعية تدرس في بغداد، وكان قد استأذن من الجنود الواقفين في مدخل الزقاق فسمحوا لهما بالعبور... لما وصلا بالقرب منا صرخ الأمريكي الذي كان يستجوبني بالشاب طالباً منه أن يستدير إلى الحائط ويرفع يديه، واشار للفتاة أن تبتعد، ثم صرخ بي كي أفعل بمثل ما فعل الشاب.. بعد ذلك أعطوا لكل منا قطعة من الكارتون كتبوا عليهما أسمينا وأخذوا يلتقطون لنا الصور.. قال المترجم؛ سيأخذونكما.

جاري الذي جاءوا من أجله لم يعتقلوه.. ذهبوا إلى محله التجاري في منطقة المفرق وفتشوه ولم يجدوا شيئاً، غير عدد من العمال في المكان فاعتقلوا بعضهم.. لا أدري لماذا؟!

انظر في وجهي!

وجدنا أنفسنا في مديرية شرطة ديالى.. بقينا فيها ثلاثة أيام، من دون أن يوجه لنا أي سؤال قبل أن يأخذونا إلى مطار فرناس.. في المطار سألوني فيما إذا كنت قد ذهبت في هذه الأيام إلى تكريت.. ثم وجهوا لي تهمة تصنيع قنابل وعبوات ناسفة.. كانت الأسئلة والاتهامات كلها غريبة.. شعرت وكأنني في حلم مزعج.. لم يؤذوني... فقط منعوا عني السيجارة والشاي، وهذه أعدها عقوبة بحد ذاتها.. كانوا يعطوننا قنينتي ماء في اليوم، وكيسين من الطعام.

بعد أسبوع قيدوا يدي كل اثنين منا إلى بعضهما، ووضعوا رؤوسنا في أكياس ليرحلونا إلى تكريت.. قالوا لنا، إن ضربت القافلة في الطريق من قبل الإرهابيين سنقتلكم.. لم تضرب القافلة لحسن الحظ حتى لحظة وصولنا..

مع نزولنا تلقونا بصرخات وحشية وجعلونا نجلس لساعتين وأيدينا فوق رؤوسنا، ثم قيدوا كلاً منا بسلسلة في يديه ورجليه وحبسونا في مدرسة.. كان الجو بارداً أعطوا لكل منا بطانيتين مع فراش للنوم. وكانت حصتنا اليومية أربع قناني ماء وكيسي طعام وحساء في الليل.. بقينا من دون أن نغسل أجسامنا أو نحلق، وكان هناك من لم يغسل جسمه منذ شهرين أو أكثر.

كان المحقق الأمريكي في تكريت مهذباً... قال لي؛ أصدقني القول، لأن بإمكاني أن أخرجك من هنا أو أبقيك، وحين تتحدث أنظر في وجهي.

في يوم ٢٦ / ١ / ٢٠٠٤، وكان الجو ممطراً وضعوني مع أربعة آخرين في حوض شاحنة وأخذونا إلى سجن (أبو غريب)، وهناك أضافوا إلينا ستة وعشرين شخصاً من المعتقلين وأوصلونا إلى مطار فرناس في بعقوبة. وطوال الطريق كان ماء المطر ينفذ إلينا ويبللنا. كان البرد قارساً.. في المطار أطلقوا سراحي، ولم يعطوني كيس أماناتي حيث كان معي يوم اعتقالي ٨٠ دولاراً و٢٠٠٠٠ دينار عراقي، ولما ألححت قال لي أحدهم؛ هل تريد أن نرجعك إلى المعتقل؟. كذلك لم يعيدوا لي مسدسي على الرغم من وعودهم.. وعند مراجعتي قالوا لي؛ ضاع مسدسك، سنعوضك بواحد آخر.. ولم يعوضوني حتى هذه الساعة!).

مدرعة في حديقة الجيران

قد لا تختلف حكاية (ك. ع. ح) عن الحكاية السابقة إلا في التفاصيل.. يقول: (في الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وكنا في شهر رمضان، طوقت قوة أمريكية زقاقنا، وكانت تتألف من مدرعات ودبابات وسيارات من نوع همر.. إحدى المدرعات دخلت بيت الجيران بعد أن هدمت السياج الخارجي وحطمت الباب واستقرت في الحديقة.. فتشوا البيت، بينما كنا نحن أبناء المنطقة نتفرج.. بعد نصف ساعة جاءوا إلى بيتي.. سألوني عن اسمي، ثم أخرجوني مع أخي (مواليد / ١٩٧٤).. فتشوا البيت، ولم يجدوا شيئاً، قيدوني وقيدوا أخي وأخذونا إلى مطار فرناس مباشرة.. هناك حررونا من قيودنا وعرضونا على طبيب، وفي اليوم التالي حققوا معنا.. سألوني؛ هل أنت بعثي؟. هل تذهب إلى الجامع؟. هل أنت موظف؟. الخ.. بعد أربعة أيام سفرونا إلى تكريت.. حشروا أربعين معتقلاً في كل سيارة، وكنا مقيدين.. كل شخصين مع بعضهما.. في الطريق، قرب جسر السندية انفجرت سيارة (اللاندكروز) الأمريكية التي كانت تسير أمامنا، قتل خلال ذلك اميركان، وعراقي كان عابراً في المكان.. بقينا مدة ساعة قبل أن يحشروا أربعين معتقلاً في ذهنه الإجابات الموجهة إليه فوجئ بالمحقق الأمريكي يسأله عن علاقته بتنظيم القاعدة، وبصلته بأبي مصعب الزرقاوي.

يقول (ر): بقيت حائراً للحظات، ولم أكن أعرف هل علي أن أبكي أم أضحك.

حكايات طريفة

مع مشادة بسبب الطيور بدأت قصة اعتقال ستة أشخاص.. هكذا على الأقل يفسر أصحاب الشأن المسألة. فأحد الطرفين أعطى الأمريكان بلاغاً عن تورط الطرف الآخر (أب وخمسة من أبنائه) في عمليات مسلحة، وجرى الاعتقال سريعاً، لكن أمر إطلاق سراحهم لم يكن كذلك.. كانوا متهمين حتى تثبت براءتهم، واحتاجوا إلى ستة شهور قبل أن يغادر آخرهم معتقله. وكانوا في المعتقل حين جاء شخص ما وادعى - وهو يحمل قائمة أسماء - أن المعتقلين بحاجة إلى نقود، وأعطى أسماءهم وأوصافهم كاملة، وجمع، كما يقال، ست مئة ألف دينار من عشرات العائلات اللاتي لهن أبناء في المعتقلات - ومنها عائلة الستة - قبل أن يختفي بكنزه.

بعد أسابيع طويلة لمح أحد الضحايا ذلك المحتال في السوق وتعرف عليه، واستطاع مع أصدقائه حجزه وتسليمه للشرطة.

القصص كثيرة، ولكل منها طرافتها ومرارتها، وقصة الثمانية والعشرين معتقلاً في السوق واحدة منها.

على مائدة خمر، والمزاج عال العال قال (ن) لـ(ص)؛ عندي كمية من الرمانات اليدوية في البيت، وأخشى أن يداهم الأمريكان منازل الحي.. ماذا تقول، لو أجلبها إلى محلك ليومين أو ثلاثة ريثما أجد لها مشترياً، فالسوق أكثر أماناً؟

رد (ص): (تدلل).. جيء بها بكرة!

وفي الغد جاء (ن) برماناته في كيس كبير، وأدخلها المحل.

بعد ساعتين أقبل الأمريكان، وكان معهم رجل ملثم، قيل أنه المخبر الذي يعمل لصالح قوات الاحتلال.. عثر الجنود على الرمانات واقتادوا (ص) معهم بعد إلقائه أرضاً وتقييد يديه، ثم وضع الكيس في رأسه.

رمانة يدوية

إلى هنا تبدو الحكاية اعتيادية، غير أن الأمريكان لم يكتفوا باعتقال (ص)الذي ضبط متلبساً بالجرم المشهود، بل اعتقلوا معه من كان يلعب الطاولة في مقهى مجاور، واعتقلوا من كان يقف في الطابور لتسلم حصته التموينية في محل آخر، واعتقلوا رجلاً جاء من شمال الوطن يزور قريباً له في بعقوبة، وأيضاً عدداً من المارة.

كان المتهم واحداً، والذين جرى اعتقالهم ثمانية وعشرين. أما (ن) المتهم الرئيس في القضية فقد اختفى ولم تتمكن القوات الأمريكية من إلقاء القبض عليه على الرغم من مداهمة بيته مرات عديدة. وقد أطلق سراحهم جميعاً في فترات متقطعة وفي غضون أكثر من ستة أشهر.

ولعل أكثر حكايات الاعتقال طرافة هاهنا هو اعتقال (ج) الذي يسكن شقة في إحدى المجمعات السكنية، فـ(ج) كان يحتفظ في بيته برمانة يدوية من دون صاعق لإخافة اللصوص إذا ما داهموا شقته، حسب ما قال، وفي يوم ما سمع أن صناعتها ونصبها للأميركان.. كانت التهم مكتوبة على ورقة وعلينا الإجابة عنها تحريرياً.. كتبت؛ أنا لم أخدم في العسكرية يوماً واحداً بسبب صمام في القلب، فكيف تعلمت هذه الصناعة؟!. كان معنا أحد المعتقلين، أعطوه ورقة خالية من التهمة فنبه العسكري الأمريكي بذلك فأخذ الورقة وكتب في فقرة التهمة، حقير!

كانت حصة الواحد منا ثلاث سجائر في اليوم، وكان مقاول الطعام عراقياً يجلب لنا الطعام الفاسد - فاصولياء بصودا غالباً ما أصابتنا بالإسهال، وصموناً بارداً ويابساً.. وذات مرة أعطى العريف كريسي كلاً منا ملعقة واحدة من الأكل فهجنا فراحوا يرمون علينا إطلاقات مطاطية، أصابت أربعة منا.. كان ثمة جواسيس بيننا.. إذا شكوا بشيء يخرجوننا إلى البرد لساعتين من أجل أن يفتشوا.

بعد ثمانين يوماً قالوا سنطلق سراح ٥٠٠ معتقل، وكان ذلك في كانون الثاني من هذه السنة.. أطلقوا سراح ٢٥ معتقلاً وكنت واحداً منهم.. جاءوا بنا إلى مطار فرناس في بعقوبة ولم يدعونا ننام ليومين. ثم طلبوا مني أن أوقع تعهداً يقضي بعدم قيامي بالأفعال التي اتهمت بها. قلت، لن أوقع لأني لم أفعل ما اتهمتموني به.. حثني الشيخ الذي جاء ليكفلني أن أوقع لأخرج من هنا.. (صفنت) قليلاً، ووقعت.

اتهامات خطرة

يقول (ع.م)، يربكونك باتهامات خطيرة.. فجأة تحس نفسك وكأنك في طريقك إلى غوانتانامو، وإذا كنت رابط الجأش فإنك ستضحك. أما إذا ارتبكت فربما استدرجوك إلى ما لا يحمد عقباه.

(- أنت المخطط الاستراتيجي للعمليات التي يقوم بها فدائيو صدام).

هذا ما قاله شقيق أحد المعتقلين بعد إطلاق سراحه حين سألته عن تهمة أخيه.

- وماذا بعد؟!

(- والرجل الذي يقف وراء العمليات المسلحة الكبيرة).

يقول شقيق ذلك المعتقل، أن شقيقه سأل المحقق.

- ما دليلكم على ما تدعون؟.

قال له المحقق: استجوبنا ابنك فاعترف بكل شيء.

وابنه مراهق في الخامسة عشرة، قال: إن كنت كما تقولون، بهذه الأهمية الاستراتيجية، ولي مثل هذا العقل المدبر، فكيف يمكن أن أسر بمثل هذا الأمر الخطير لولد مراهق؟!

(ر. م) يعمل في إحدى مؤسسات الدولة.. تم اعتقاله بتهمة مخالفة إدارية لها علاقة بسلطة الائتلاف. وبينما كان (ر) يحضر الأمريكان موجودون في الأسفل فاعتقد أنهم سيفتشون الشقق ففتح النافذة وألقى برمانته ليتخلص منها.. سقطت الرمانة في بركة من الماء عند أقدام الجنود.. نظروا إلى الأعلى فرأوا النافذة تغلق فذهبوا إليه واعتقلوه، ولم يكتفوا بذلك بل فتشوا المجمع بكامله.. هم الذين لم يكن في نيتهم فعل ذلك.

حكاية من نمط مغاير

يغدو المعتقل جزءاً من تاريخ المرء.. علامة فارقة على الطريق، وحدثاً يستعصى على النسيان.

في رواية قصيرة لفيركور يتحدث عن رجل يجد نفسه مثقل الضمير إلى حد الهلاك وهو يستذكر واقعة سجنه في معتقل نازي.. كان قائد مجموعة مقاومة فرنسية، وهناك أجبره النازيون على أن يقوم بإلقاء أفراد مجموعته مع آخرين في المحرقة.. قالوا له، على اية حال سنلقيهم نحن في الفرن إن لم تفعل أنت، فلماذا لا تفعل وتنقذ حياتك؟!

وفعل، وأنقذ حياته، لكنه خسر كل شيء آخر.

لي صديق شاعر، جرى اعتقاله، في ثمانينيات القرن العشرين، بينما كانت الحرب العراقية الإيرانية تطحن كل شيء.. كانت طريقة اعتقاله غريبة إذ وصل كتاب استدعاء باسمه إلى وحدته من مديرية الاستخبارات العسكرية / الشعبة الخامسة في الكاظمية.. دخل استعلامات المديرية قلقاً متوجساً وسلم كتابه الذي حمله من وحدته للموظف المسؤول، فقال له هذا، تفضل استرح. فانتظر حتى انتهاء ساعات الدوام الرسمي.. تنبه له موظف الاستعلامات واتصل بشخص ما في الداخل قبل أن يلتفت إلى صاحبنا ويقول له:

- (آسفين)، هل تستطيع الحضور غداً.. لقد نسوك.

وكرر اعتذاره برقة.

غادر والقلق يتآكله، وقضى الليلة وهو يسكر في نادي اتحاد الأدباء. وفي الغد ذهب مرة أخرى إلى استعلامات الاستخبارات العسكرية فجرى له بمثل ما جرى أمس.. وتكرر الحال يومين آخرين حتى أوشك على الانهيار. وأخيراً قالوا له، تفضل أدخل.. ومع دخوله شدوا (العصابة) على عينيه وانهالوا عليه بالضرب.

تكشفت حقائق فضيحة (أبو غريب)، وخرجت إلى العلن، وأصبح بمقدور الجميع معرفة تفاصيلها وإدانتها. وتلك حسنة تؤشر إلى جانب سيئة الفضيحة نفسها، والتي تفوق - قطعاً - بهولها قيمة تلك الحسنة (في الدرجة، وفي النوع). لكن متى ستتكشف حقائق فضائح السجون العربية وتخرج إلى العلن ليكون بمقدورنا معرفتها وإدانتها؟. ففي تلك السجون تنتهك كرامة البشر بشكل قل نظيره في أي زمان ومكان، وتسحق الذات الإنسانية ويتجلى الرعب.

في رواية (الآن / هنا - شرق المتوسط ثانية) ثمة رجل يعامل في سجن عربي كما لو أنه مصاب بلوثة.. يأتيه الطبيب النفساني فيجده وقد ألصق أذنه على الحائط فيلصق الطبيب أذنه هو الآخر إلى جانبه على الحائط. وحين يخبره أنه لا يسمع شيئاً، يرد الرجل أنه هو أيضاً لا يسمع شيئاً، وهذه هي المصيبة بعينها. إذ كيف تجري هذه الأهوال كلها داخل جدران السجن بينما من هم خارج هذه الجدران صامتون؟!.